قصة الأيدى المتوضئة ...

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

قال راوى الخبر : ذهبتُ إلى المسجد لصلاة الجمعة ؛ والمسجد يجمع الناسَ بقلوبهم ليُخرجَ كلَّ إنسان من دنيا ذاته ، فلا يفكر أحد أنه أسمى من أحد ؛ ولقد يكون إلى جانبك الصانعُ أو الأجير أو الفقير أو الجاهل ، وأنت الرئيس أو العظيم أو الغنى أو العالم ، فتنظر اليه وإلى نفسك فتحس كأن خواطرك متوضئةٌ متطهرة ؛ وترى كلمة الكبرياء قد فقدت روحَها ، وكلمة التواضع قد وجدت روحَها ؛ وتشعر بالنفس المجتمعة قد نصبت الحربَ للنفس المنفردة . ولو خطر لك شيء بخلاف ذلك رأيتَ الفقير إلى جانبك توبيخاً لك ، ونظرتَ اليه ساكتاً وهو يتكلم فى قلبك ، وشعرت بالله من فوقكما ، واستعلنتْ لك روحُ المسجد كأنها تَهُمُّ بطردك ، وخيّل اليك أن الأرض ستلطم وجهك إذا سجدت ، وأيقنتَ من ذات نفسك أن لست هناك فى دنياك وليس صاحبك فى دنياه ، وإنما أنتما هناك فى انسانية مزانُها بيد الله وحده ؛ فلا تدرى أيكما الذى يخفّ وأيكما الذى يثقل[1]

قال : والعجيب أن هذا الذى لا يجهله أحد من أهل الدين ، يعرفه بعض علماء الدين على وجه آخر ، فتراه فى المسجد يمشى مختالاً ، قد تحلى بحليته ، وتكلّف زَهْوه ، فلبس الجبة تسع اثنين ، وتطاول كأنه المئذنة ، وتصدّر كأنه القبلة ، وانتفخ كأنه ممتلىء بالفروق بينه وبين الناس ؛ وهو بعد كل هذا لو كشف الله تمويهَهُ لانكشف عن تاجر علم بعضُ شروطه على الفضيلة أن يأكل بها ، فلا يجد دنيا ذاته إلا فى المسجد ، فهو نوع من كذب العالم الدينى على دينه

* * *

قال الراوى : وصعد الخطيب المنبرَ ، وفى يده سيفُه الخشبيُّ يتوكأ عليه ؛ فما استقر فى الذروة حتى خُيل إلىّ أن الرجل قد دخل فى سر هذه الخشبة ، فهو يبدو كالريض تقيمه عصاه ، وكالهرم يمسكه ما يتوكأ عليه ؛ ونظرت فاذا هو كذب صريح على الاسلام والمسلمين ، كهيئة سيفه الخشبي فى كذبها على السيوف ومعدنها وأعمالها

وتالله ما أدرى كيف يستحلُّ عالم من علماء الدين الاسلامى فى هذا العصر أن يخطب المسلمين خطبَة جمعتهم وفى يده هذا السيف علامة الذل والضَّعة والتراجع والانقلاب والادبار والهزل والسخرية والفضيحة والاضحاك ؛ ومتى كان الاسلام يأمر بنجْر السيوف من الخشب ونحتها وتسويتها وإرهاف حدها الذى لا يقطع شيئاً ، ثم وضعها فى أيدى العلماء يَعْتَلُونَ بها ذُؤابة كل منبر لتتعلق بها العيون وتشهد فيها الرمز والعلامة ، وتستوحى منها المعنوية الدينية التى يجب أن تتجسَّم لترى ؟

أفى سيفٍ من الخشب معنوية غير معنى الهزل والسخافة وبلاهة العقل وذلة الحياة ومسخ التاريخ الفاتح المنتصر ، والرمز لخضوع الكلمة وصبيانية الارادة ؟

قال : وكان تمام الهزء بهذا السيف الخشبي الذى صنعته وزارة أوقاف المسلمين أنه فى طول صَمْصَامة عمرو بن معد يكرب الزبيدى فارس الجاهلية والاسلام[1] فكان الى صدر الخطيب ، ولولا أنه فى يده لظهر مقبضه فى صدر الرجل كأنه وسام من الخشب ...

قال : وكان الخطيب إذا تكلّف وتصنّع وظهر منه أنه قد حَمِىَ وثار ثائره — ارتجّ وغفل عن يده فتضطرب فيها قبضةُ السيف فتلكزه فى صدره كأنما تذكره أن فى يده خشبة .... لا تصلح لهذه الحماسة

* * *

قال : وخطب العالم على الناس ، وكان سيفُه الخشبي يخطب خطبة أخرى ؛ فأما الأولى فهى محفوظة معروفة ولا تنتهى حتى ينتهى أمرها إذ هى كالقراءة لاقامة الصلاة ، وكانت فى عهدها الأول كالدرس لاقامة شأن من شؤون الاجتماع والسياسة ،

(١) استوفينا الكلام عن فلسفة المسجد فى مقالات كثيرة من مقالاتنا فى الرسالة

(١) كان طول الصمصامة سبعة أشبار وافية وعرضها شبر

فبينها وبين حقيقتها الاسلامية مثل مابين هذا السيف من الخشب وبين حقيقته الاولى . وأما الخطبة الثانية فقد عقلتُها أنا عن تلك الخشبة وكتبتها وهذه هى عبارتها :

ويحكم أيها المسلمون : لو كنتُ بقية من خشب سفينة نوح التى أنقذ فيها الجنس البشرى لما كان لكم أن تضعونى هذا الموضع ، وما جعلكم الله حيث أنتم إلا بعد أن جعلتمونى حيث أنا ، تكاد شرارة تذهب بى وبكم معاً لأن فىَّ وفيكم المادة الخشبية والمادة المتخشبة

ويحكم ! لو أنه كان لخطيبكم شىء من الكلام النارىّ المضطرم لما بقيت الخشبة فى يده خشبة . وكيف يمتلىء الرجل إيماناً بإيمانه ، وكيف يصعد المنبر ليقول كلمةَ الدين من الحق الغالب وكلمةَ الحياة من الحق الواجب — وهو كما ترونه قد انتهى من الذل الى أن فقد السيفُ روحه فى يده ؟

أيها المسلمون ! لن تفلحوا وهذا خطيبكم التكلم فيكم إلا إذا أفلحتم وأنا سيفكم الدافع عنكم ؛ أيها المسلمون غيِّروه وغيِّروني[1]

* * *

قال راوى الخبر : ولما قُضِيَتْ الصلاة ماج الناس إذ انبعث فيهم جماعة من الشبان يصيحون بهم يستوقفونهم ليخطبوهم . ثم قام أحدهم يخطب فذكر فلسطين وما نزل بها ، وتغيُّر أحوال أهلها ، ونكبتهم وجهادهم واختلال أمرهم ؛ ثم استنجد واستعان ودعا الموسر والمخِفّ الى البذل والتبرع وإقراض الله تعالى ؛ وتقدم أصحابه بصناديق مختومة ، فطافوا بها على الناس يجمعون فيها القليل والأقل من دراهم هى فى هذه الحال دراهم أصحابها وضمائرهم

قال : وكان الى جانبى رجل قَروى من هؤلاء الفلاحين الذين تعرف الخير فى وجوههم والصبر فى أجسامهم والقناعة فى نفوسهم والفضل فى سجاياهم ، إذ امتزجت بهم روح الطبيعة الخصبة فتخرج من أرضهم زُروعا ومن أنفسهم زروعا أخرى — فقال لرجل كان معه : إن هذا الخطيب خطيب المسجد قد غشنا وهؤلاء الشبان قد فضحوه ، فما ينبغى أن تكون خطبة المسلمين إلا فى أخص أحوال المسلمين

قال : ونبهنى هذا الرجل الساذج إلى معنى دقيق فى حكمة هذه المنابر الاسلامية ؛ فما يريد الاسلام إلا أن تكون كمحطات الاذاعة يلتقط كل منبر أخبار الجهات الأخرى ويذيعها فى صيغة الخطاب إلى الروح والعقل والقلب ، فتكون خطبة الجمعة هى الكلمة الأسبوعية فى سياسة الأسبوع أو مسئلة الأسبوع ؛ وبهذا لا يجىء الكلام على المنابر إلا حياً بحياة الوقت فيصبح الخطيب ينتظره الناس فى كل جمعة انتظار الشىء الجديد ؛ ومن ثم يستطيع المنبر أن يكون بينه وبين الحياة عمل

قال : وخيِّل إلى بعد هذا المعنى أن كل خطيب فى هذه المساجد ناقصٌ إلى النصف لأن السياسة تُكرهه أن يخلع إسلاميتَه الواسعة قبل صعوده المنبر وألاّ يصعد إلا فى إسلاميته الضيقة المحدودة بحدود الوعظ الذى هو مع ذلك نصفُ وعظ ... فالخطبة فى الحقيقة نصف خطبة أو كأنها أثر خطبة معها أثر سيف . . .

قال : وأخرج القروى كيسه فعزَل منه دراهم وقال هذه لطعام أتبلَّغ به ولأوبتى إلى البلد ، ثم أفرغ الباقى فى صناديق الجماعة ؛ وافتديت أنا به فلم أخرج من المسجد حتى وضعت فى صناديقهم كل ما معى ؛ ولقد حسبت أنه لو بقى لى درهم واحد لمضى يسعى ما دام معى إلى أن يخرج عنى

* * *

قال الراوى : ثم دخلت إلى ضريح صاحب المسجد أزوره وأقرأ فيه ما تيسر من القرآن فاذا هناك رجال من علماء المسلمين ، إثنان أو ثلاثة (الشكُّ فى ثالثهم لأنه حليق اللحية) . ثم توافى إليهم آخرون فتموا سبعة ؛ ورأيتهم قد خلطوا بأنفسهم صاحب (اللالحية) فعلمت أنه منهم على المذهب الشائع فى بعض المصريين من العلماء والقضاة الشرعيين ، أحسبهم يحتجون بقوله تعالى : « ولقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » ؛ وكل امرىء فانما تُبصره مرآته كيف يظهر فى أحسن تقويم ، أبلحية أم بلا لحية . . . ؟

وأدرت عينى فى وجوههم فاذا وقار وسَمْتٌ ونور لم أر منها شيئاً فى وجه صاحب (اللالحية) ؛ وأنا فما أبصرتُ قط لحيةَ رجل عالم أو عابد أو فيلسوف أو شاعر أو كاتب أو ذى فن عظيم ، إلا ذكرت هذا المعنى الشعرىّ البديع الذى ورد فى بعض الأخبار

(١) نرجو من أستاذ المسلمين وشيخ الجامع الأزهر أن يتقدم الى وزارة الأوقاف فى جمع هذه السيوف الخشبية وتكسيرها وبيعها وقودا ؛ وإن لم تكن الحقيقة فلا معنى لتزويرها هذا التزوير المضحك

من أن الله تعالى ملائكةً يُقسِمون : والذى زين بنى آدم باللَّحى

وكان من السبعة رجل ترك لحيتَه عافيةً على طبيعتها فامتدت وعظمت حتى نَشَرَتْ حولها جوّا روحانياً من الهيبة تشعر النفس الرقيقة بتياره على بُعد ، فكان هذا أبلغ رد على ذاك

* * *

قال : وأنصت الشيوخ جميعاً إلى خطب الشبان ، وكانت أصوات هؤلاء جافيةً صُلبةً حتى كأنها صَخَبُ معركة لا فنُّ خطابة ، وعلى قدر ضعف المعنى فى كلامهم قوى الصوت ؛ فهم يصرخون كما يصرخ المستغيث فى صيحات هاربة بين السماء والأرض

فقال أحد الشيوخ الفضلاء : لا حول ولا قوة إلا بالله ! جاء فى الخبر : تَعِس عبدُ الدينار ، تَعِس عبدُ الدرهم ، ووالله ما تعس المسلمون الا منذ تعبدوا لهذين حرصاً وشحاً ؛ « ومن يوقَ شُحَّ نفسِه فأولئك هم المفلحون » ، ولو تعارفت أموال المسلمين فى الحوادث لما أنكرتهم الحوادث

فقال آخر : وفى الحديث : « إن الله يحب إغاثة اللَّهْفان» ولكن ما بال هؤلاء الشبان لا يوردون فى خطبهم أحاديث مع أنها هى كلمات القلوب . فلو أنهم شرحوا للعامة هذا الحديث : « إن الله يحب اغاثة اللهفان » لأسرع العامة الى ما يحبه الله

قال الثالث : ولكن جاءنا الأثر فى وصف هذه الأمة : إنها فى أول الزمان يتعلم صغارها من كبارها فاذا كان آخر الزمان تعلم كبارهم من صغارهم ؛ فنحن فى آخر الزمان وقد سُلط الصغار على الكبار يريدون أن ينقلوهم عن طباعهم الى صبيانية جديدة

قال الراوى : فقلت لصديق معى : قل لهذا الشيخ ليس معنى الأثر ما فهمت ، بل تأويله أن آخر الزمان سيكون لهذه الأمة زمن جهاد واقتحام وعزيمة ومغالبة على استقلال الحياة فلا يصلح لوقاية الأمة إلا شبابُها المتعلم القوى الجرىء كما نرى فى أيامنا هذه فينزلون من الكبار تلك المنزلة إذ تكون الحماسة متممة لقوة العلم . وفى الحديث : أمتى كالمطر لا يُدرى أوله خير أم آخره

* * *

قال الراوى : ولم يكد الصديق يحفظ عنى هذا الكلام ويهم بتبليغه حتى وقعت الصيحة فى المكان فجاء أحد الخطباء ووقف يفعل ما يفعله الرعد ، لا يكرر إلا زمجرة واحدة ، . وكان الشيوخ الأجلاء قد سمعوا كل ما قيل فأطرقوا يسمعونه مرة رابعة أو خامسة . وفرغ الشاب من هديره فتحول اليهم وجلس بين أيديهم متأدباً متخشعاً ووضع الصندوق المختوم

فقال أحد الشيوخ : ممن أنت يا بنى ؟ قال : من جماعة الاخوان المسلمين . قال الشيخ . لم يخف علينا مكانك وقد بذلتم ما استعطتم فبارك الله فيك وفى أصحابك

وسكت الشاب وسكت الشيوخ وسكت الصندوق أيضاً

ثم تحركت النفس بوحى الحالة فد أولهم يده الى جيبه ، ثم دسها فيه ! ثم عيَّثَ فيه قليلا[1] ؛ ثم . . . . ثم أخرج الساعة ينظر فيها

وانتقلت العدوى الى الباقين فأخرج أحدهم منديله يتمخط فيه . وظهرت فى يد الثالث سبحة طويلة . وأخرج الرابع سواكا فمر به على أسنانه . وجرَّ الخامس كراسة كانت فى قبائه . ومد صاحب اللحية العريضة أصابعه الى لحيته يخللها . أما السابع صاحب (اللالحية) فثبتت يده فى جيبه ولم تخرج كأن فيها شيئاً يستحى إذا هو أظهره أو يخشى إذا هو أظهره من تخجيل الجماعة

وسكت الشاب وسكت الشيوخ وسكت الصندوق أيضاً

قال الراوى : ونظرت فاذا وجوههم قد لبست للشاب هيئة المدرس الذى يقرر لتلميذه قاعدة قررها من قبل ألف مرة لألف تلميذ . فخجل الشاب وحمل صندوقه ومضى

* * *

أقول أنا : فلما انتهى الراوى من (قصة الأيدى المتوشئة) ، قلت له : لعلك أيها الراوى استيقظت من الحلم قبل أن يملأ الشيوخ الأجلاء هذا الصندوق ، وما ختم عقلك هذه الرواية بهذا الفصل الا بما كدرت فيه ذهنك من فلسفة تحول السيف الى خشبة . ولو قد امتد بك النوم لسمعت أحدهم يقول لسائرهم : بمن ينهض إخواننا المجاهدون وبمن يصولون ؟ لهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « جاهل سخىٌّ أحب الى الله من عالم بخيل » ؛ ثم يملأون الصندوق . . . . . .

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

(١) أى بحث بأصابعه

إلى الأديب النابلسى : لا نرى ذلك الرأى فى تمثيل روايات الأنبياء فخروج نبى على مسرح التمثيل انما هو تزوير نبى . وهذا يكفى

الرافعى